علم اجتماع المعرفة بين ابن خلدون ونيقولا مكيافللي

دراسة مقارنة

أ. م. د. شفيق إبراهيم صالح الجبوري(*)

المقدمة

يعد علم اجتماع المعرفة وسيلة بحث نظرية تستخلص الصور من الواقع، وينتظمها في قوالب نظرية. ومضمون وسيلته، تحديد رؤية معينة يقيس السلوك وفقها، إلا ان هذه الوسيلة لم تكن وسيلة متفق عليها، بقدر ما هي وجهة نظر مكتسبة صفة العلمية انطلاقا من التحديد الذي يعطي لها من قبل الباحثين. فبدأً من ليفي برول الذي حدد مفهوم العقلية البدائية من كونها تقوم على أساس وحدة الإنسان مع بيئته، وعاداته(1)، وتماثله مع العقل الجمعي(2)، وإحلاله لرئيس القبيلة المكانة الرفيعة في مجتمعه(3)، ومرورا بابي (علم اجتماع المعرفة) كارل مانهايم الذي حددها (الوسيلة) بالتطلع بكونه أسلوب ينظر من خلاله الفرد إلى موضوع ما، وما

(*) قسم علم الاجتماع _ كلية الآداب / جامعة الموصل.

(1) ليفي برول/ العقلية البدائية/ ترجمة محمود القصاص/ مكتبو مصر / دون تاريخ / ص 347، 457-458.

(2) المصدر نفسه/ ص 462.

(3) المصدر نفسه/ ص 359 – 364، 450 – 452، 460 – 462.

ان في خضم البحث العلمي لعلم اجتماع المعرفة لا يمكن الوقوف على مرحلة زمنية معينة ينطلق من لحظتها تحديد ميلاد نشوته، طالما ان الأفراد – الباحثين – وجدوا. ولكن الأمر يتعلق بدرجة وضوح الرؤية لأولئك الباحثين في تحديد نقطة التحليل. وعلى ذلك يكون كل علم له جذوره في التاريخ الإنساني، وفي تاريخ العلم. وإذا كانت صورة علم اجتماع المعرفة قد تحددت وتبلورت بشكل كامل... وبالطبع ليس مطلق – على يد كارل مانهايم منذ منتصف القرن العشرين. فان الأمر لا يعني ان مانهايم كان الأول في الحديث في علم اجتماع المعرفة. وفي محاولتنا المتواضعة نرمي إلى تحديد زمن اعمق من زمن مانهايم. ونعود بالتاريخ إلى زمن نيقولا مكيافللي، من خلال معادلة إظهار ملامح علم اجتماع المعرفة عنده

(4) مانهايم / الايدولوجية والطوبائية/ ترجمة د. عبدالجليل الطاهر/ مطبعة الإرشاد / بغداد 1968/ ص 400.

(5) المصدر نفسه / ص 293.

(6) جورج جورفيتش / الأطر الاجتماعية للمعرفة/ ترجمة خليل احمد خليل/ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت/ ط2 1988/ ص 21.

(7) المصدر نفسه / ص 28 – 53.

لقد جاء اختيارنا لـ(ميكافللي وابن خلدون) من منطلق تشابه الظروف الاجتماعية والسياسية لكليهما. ومن وجه آخر حتى نثبت بان لابن خلدون السبق في الحديث عن علم اجتماع المعرفة ليس كملاحظة عابرة وانما كرؤية علمية من قبل باحث علمي. انغمس في صلب الواقع الاجتماعي، فلم تكن علميته فلسفية مقطوعة الصلة بالواقع. كما لم تكن تصميماته عن المجتمع (العربي) تصميمات سلبية هدفها الثورة على تردي الوضع العربي، بقدر ما هي تصميمات إيجابية هدفها وضع الأسس العلمية لدراستها، بل لتغييرها بما يخدم مصلحة الأمة، وفي هذه النقطة يلتقي ابن خلدون مع ميكافللي حينما وضع الأسس التي يجب إذا أراد الأمير الاحتفاظ بإمارته أو أراد إصلاح إمارته، الاقتداء بها.

ويأتي هذا الاختيار وفق الأساسين الإنساني والعلمي، وفيما يتعلق بالأساس الأول نؤكد على ان المعارف مهما كان مصدر نشؤها فان هدفها خدمة الإنسان، وبما يوفر إمكانية تطبيق المعرفة المستخلصة من أي مجتمع على أي مجتمع آخر خاصة في ميدان قواعد البحث.

وفيما يتعلق بالأساس العلمي نرى إمكانية استمرارية الروح العلمية للباحثين عبر مراحل الزمن، ابن خلدون في القرن الرابع عشر، ومكيافللي في القرن السادس عشر، وملاحظة توير مديات البحث من خلال الوحدات الزمنية.

(*) لقد تم درس علم اجتماع المعرفة عند ابن خلدون في أطروحة للدكتوراه من قبل الباحث عام 2000/ في قسم علم الاجتماع وهي مقدمة إلى مجلس كلية الآداب – جامعة بغداد.

لقد تضمن البحث مقدمة، وأربعة مباحث، ثم خاتمة تضمنت الاستنتاجات المبحث الأول... الأطر المنهجية للبحث، المبحث الثاني علم اجتماع المعرفة عند نيقولا ميكافللي، المبحث الثالث علم اجتماع المعرفة عند ابن خلدون، والمبحث الرابع مقارنة علم اجتماع المعرفة الخلدوني بعلم اجتماع المعرفة المكيافللي.

المبحث الأول

الأطر المنهجية للبحث

1. موضوع البحث

تقوم مشكلة البحث على ثلاث أركان رئيسية، يتمثل الركن الأول بتحديد معالم علم اجتماع المعرفة، عند نيقولا ميكافللي، كوسيلة بحث اعتمدها في تحديد اجتماعية المعرفة السياسية، ومن ثم تشخيص أسس علم اجتماع المعرفة المكيافللي، بينما يتمثل الركن الثاني بعرض لعلم اجتماع المعرفة الخلدوني واعتماد معناه السياسي بما يتفق وهدف الركن الأول. يأتي الركن الثالث كمقارنة بين علمي اجتماع المعرفة الخلدوني والمكيافللي.

2. هدف البحث

يهدف البحث إلى بيان وجود معالم علم اجتماع المعرفة عند ميكافللي واعتماده كوسيلة بحث فلسفية(**) وإمكانية مقارنته بعلم اجتماع المعرفة عند ابن خلدون الذي عده في ذات الوقت وسيلة بحث فلسفية (معرفية).

(**) يعد علم اجتماع المعرفة وسيلة بحث كما متفق عليه لدى كل من مؤسسة (ابن خلدون) ومبلوره (كارل مانهايم) ومطبقه في الدراسات التجريبية (جورج جورفيش).

3. أهمية البحث

تـأتي أهمية البحث في إغنائه رغم تواضعه في الجهد العلمي المكتبة الاجتماعية العربية بدراسات علمية هدفها ترسيخ وجود علم اجتماع المعرفة عربياً. وفي تطويره كوسيلة بحث تقوم على أساس استخلاص البنى الذهنية للمجتمع من صلب واقعه بما يخدم البحث العلمي والفكر العلمي الإنساني منه، والعربي، في وقت زاد التركيز فيه على البحوث ذات الطابع الإحصائي، التي ربما يلعب فيها (تماري، وتسويف) المبحوث، لأسباب عديدة منها سياسية أو اجتماعية أو اعتبارية دورا في تأخير تطور علم الاجتماع.

4. منهج البحث

تمثل منهج البحث باعتماد علم اجتماع المعرفة كمنهج بحث يعتمده الباحث في تشخيص معالم اجتماع المعرفة لدى ميكافللي، وقد اثبت هذا المنهج فاعليته. في دراسة سابقة(***). وقد تضمنت طيات البحث نفسه على مدار مباحثه بمنطق معرفي.

أبعاد البحث

يضم البحث أبعاد متعددة منها: البعد المعرفي وهو يتمثل في إضفاء الصفة المعرفية على البحث الاجتماعي بما يخدم تشكيل النمط الذهني، وتطوير علم اجتماع المعرفة، والبعد العلمي لإعطاء منهج البحث، قيمة المقارنة، وانطلاقا من كونها وسيلة علمية تبرز المتشابه من الأفكار، وتمحور المختلف منها، بما يخدم

(***) قام جورج جور فيتش بتطبيق علم اجتماع المعرفة على انه منهج بحث في كتابه الأطر الاجتماعية للمعرفة.

المبحث الثاني

أسس علم اجتماع المعرفة عند ميكافللي

يجدر بنا ونحن نحاول ان نستوضح أسس علم اجتماع المعرفة عند ميكافللي ان نشير إلى ان هذا العلم لم يكن معروفا لدى ميكافللي، بالمعنى الأكاديمي لكن أسسه جاءت كحقائق سلم بها استند عليها في استخلاص المعرفة الاجتماعية الأساسية، ويمثل جهدنا في هذا البحث ان نشخص تلك الأسس. ولابد من ان نذكر بان هذه الأسس لم تكن تأمل أو إقحام على فكر ميكافللي، وانما هي أسس موجودة اعتمدها ميكافللي وكثيرا ما قاس وفقها السلوك الاجتماعي خاصة السياسي منه واستشهد من التاريخ بما يؤكد حقيقتها.

وهي على النحو الآتي

1. الطبيعة البشرية

لعبت الخبرة الشخصية لمكيافللي بشقيها (السياسة، والمنفي) ودراسة التاريخ، دورا في تحليله المعرفي. (وهي المعرفة التي حصلَ عليها بعد تجربة طويلة، وخبرة بالأحداث المعاصرة ودراسة لوقائع الماضي) [8].

ولشدة ارتباطه بواقع مجتمعه فانه حاول ان يبني نظام سياسي محكم قائم على أساس فهم الأمير لطبيعة الشعب الذي يحكمه. ولذلك نجد ان مكيافللي في جميع نصائحه التي يقدمها للأمير يقرن النصيحة بالتذكير بنوع الطبيعة البشرية وغالبا ما يقسم الطبيعة البشرية للناس قسمين، الأول: البسطاء والخام من الناس (بحيث يطيعون الاحتياجات الراهنة. ولذا فان من يتقن الخداع، يجد دائما أولئك الذين هم على استعداد لان تنطلي عليهم خديعته) [9].

اما القسم الثاني فهم المهذبون، ممن (لا يعتبرون أنفسهم من النوع الخام) [10] الذين يكون من الصعب إقناعهم بتقبل النظام الجديد.

ان ما يحكم الطبيعة البشرية (الحب والخوف) ويقاس السلوك الاجتماعي بموجب هذين المتغيريين، إلا ان مكيافللي يرجح كفة الخوف في تحصيل السيادة والطاعة، يقول مكيافللي (ان الناس يتأثرون على الغالب بواحد من عاملين هما الحب والخوف، ومن هنا يكون كل صاحب سلطة اما من النوع الذي يفرض حبه، أو النوع الذي يُبعث الخوف منه، ويكون الرجل الذي يبعث الخوف عادة، اكثر

(8) نيقولا ميكافللي / الأمير / ترجمة خيري حماد / دار الآفاق الجديدة / بيروت / ط 10 / 1979 / ص 51.

(9) نفس المصدر / ص 149.

(10) نيقولا ميكافللي / مطارحات مكيافللي / ترجمة خيري حماد / دار الآفاق الجديدة / بيروت / ط 2 / 1979 / ص 264.

ان التصور المكيافللي عن سوء الطبيعة البشرية جعله يأتي بإحكام تشوبها القسوة، وبالتأكيد لعب الواقع الاجتماعي الإيطالي بكل متغيراته، ودسائس السياسيين بالتحديد، ومصالح الدول المتصارعة في إيطاليا، ناهيك عن الجيوش الجرارة من المرتزقة الذين هم دائمي التغير، (وقد يقال عن الناس بصورة عامة، انهم ناكرون للجميل، متقلبون، مراؤن، ميالون إلى تجنب الأخطار، وشديدوا الطمع، وهم إلى جانبك طالما انك تفيدهم)[14] لعب كل ذلك دورا في تشكيل تصوره الذهني.

إلا ان ميكافللي لم يكن تأملي الطرح حول الطبيعة البشرية، ذلك لأنه قاس محدداتها (الحب، والخوف، المكر...) بالواقع الحقيقي، لا تكلف نظري، أو تصور ما يجب ان يكون لقد وجد مكيافللي الرضا الاجتماعي عن آثار الطبيعة البشرية، وتماشيا مع ذلك جعل الامتلاك وهو الشكل الظاهر من الغريزة الطبيعية محك لرؤيته تجاه الإنسان فالرغبة (في الامتلاك غريزة طبيعية وشيء مألوف، وعندما

(11) نيقولا مكيافللي / مطارحات ميكافللي / مصدر سابق / ص 680.

(12) المصدر نفسه / ص 681.

(13) المصدر نفسه / ص 310.

(14) نيقولا ميكافللي / الأمير / مصدر سابق / ص 144 / ينظر أيضا المطارحات ص 224 و ص 250.

إذن هناك اقتران واضح بين غرائز الإنسان وبين التصور الاجتماعي ولذلك فعلى الإنسان ان يسير وفق طبيعته البشرية وبالتحديد غريزة الامتلاك لانها ترفع من مكانته، وهذا هو ما حدى به إلى القول بالقوة فضلا عن أسباب أخرى ليس هذا موطن ذكرها، لان القوة هي التي تجعله قادرا على تحقيق إنجاز ما، ولذلك فعلى الإنسان ان يسعى وبسلوك غريزي على تحقيق هدفه دون ان يصرح بما ينوي لان المسألة مسألة صراع بين غرائز البشر (فعلى الإنسان ان لا يعلن عن حقيقة نواياه بل يعمل على تحقيق ما يرغب فيه بأي شكل من الأشكال وهذا يعني مثلا ان الإنسان لا يحتاج عندما يطلب سلاحا من آخر إلى ان يقول له: انني أريد قتلك به، طالما ان في مكنته ان يشبع رغبته عندما يصبح في يديه) [16].

ان المسألة الاجتماعية من خلال الطبيعة البشرية عند مكيافللي مسألة وجود وتحقيق ذات (ان الناس يميلون إلى الاعتقاد بان ليس في وسعهم صيانة ما بأيديهم والحفاظ عليه، إلا إذا حصلوا على المزيد على حساب الآخرين)[17]، ولكن الشيء الذي يجب ان لا يغيب عن البال، وأنصافا لمكيافللي نقول ان تصوره لم يكن عن الفرد من اجل إعطائه الحق في التماشي مع غرائزه، وانما تصوره عن الفرد، جاء من اجل اخذ الحيطة والحذر من هذا السلوك، وتأطير هذا الاحتياط بإطار سياسي

(15) نيقولا ميكافللي / الأمير / مصدر سابق / ص 68.

(16) نيقولا ميكافللي / الأمير / مصدر سابق / ص 68.

(17) نيقولا ميكافللي / مطارحات ميكافللي / مصدر سابق / ص 366.

2. العقلانية الاجتماعية

يقول ميكافللي (كثيرا ما اعتقدت ان السبب في سعود المرء ونحوسه مرتبط بما لسلوكه من توائم مع الزمن الذي يعيش فيه، وكثيرا ما يرى المرء ان بعض الناس يتسرعون غاية التسرع فيما يفعلونه، وان بعضهم يتروون غاية التروي في أعمالهم، ولما كان الفريقان يمضيان إلى حد التطرف سواء في التسرع أو الروية فانهما يكونان عاجزين عن أداء الأمور في وضعها الصحيح، وبالتالي دائبين على ارتكاب الأخطاء. اما الإنسان الذي يوفق بين سلوكه وبين ظروفه، حتى ولو كان مدفوعا كما سبق لي ان قلت إلى عمله بطبيعته فانه يكون من الناحية الأخرى اقل ارتكابا للأخطاء واقرب إلى النجاح من غيره)[18].

يدعو ميكافللي هنا إلى جانب مهم من جوانب النجاح في السلوك الاجتماعي وهو جانب إحكام العقل في التصرف من اجل تحقيق النجاح وبالتالي الحوز على التقدير الاجتماعي. وأساس العقل هنا توفيق الإنسان بين متغيرات الحياة، انه ليس توفيق غريزي كما في الطبيعة، لان ذلك التوفيق منافي لأساس السلوك الذي يحقق عنصر الطاعة، وانما هو توفيق اجتماعي، قائم بالأساس على الاختلاف الوارد في الطبيعة البشرية حتى وان اقتضى تعديل غرائزه للتلاؤم مع المتغيرات، وهنا نلمس شيئا من مسألة التمثيل المسرحي لجوفمان حول كبح الغرائز وتنسيقها وفق

(18) المصدر نفسه / ص 636.

لقد اعتمد ميكافللي مبدأ العقلانية الاجتماعية في تحليلاته التاريخية – السياسية والمتصفح لأي من كتابيه يجده كثيرا ما قاس سلوك الأمراء وفق هذا المبدأ (على الأمير ان لا يستهدف شيئا غير الحرب وتنظيمها وطرقها وان لا يفكر أو يدرس شيئا سواها... بل تتعداها إلى مساعدة الآخرين من أبناء الشعب)[21] على الأمير (ان يقلد الثعلب والأسد معا، إذ ان الأسد لا يستطيع حماية نفسه من الإشراك والثعلب لا يتمكن من الدفاع عن نفسه أمام الذئاب. ولذا عليه ان يكون ثعلبا لميز الفخاخ. وأسدا ليرهب الذئاب)[22]. وسواها من الأمثلة التي يستعين بها مكيافللي يؤكد على عنصر العقلانية الاجتماعية كمبدأ هام من مبادئ السلوك السياسي. وهذا العنصر يقوم على مبدأ المعرفة بمجمل الظرف الاجتماعي. لان الجهل بمتغيرات هذا الظرف حتما ستقود إلى سلوك لا عقلاني. لان المعرفة تسلط الضياء على اختيار سلوك معين بشكل منتبه ومدرك بحيث تجعل حالة الفرد

(19) ارفنج زايتلي / النظرية المعاصرة في علم اجتماع / ترجمة د. محمود عودة ود. إبراهيم عثمان / منشورات ذات السلال الكويت 1989 / ص 320.

(20) نيقولا ميكافللي / مطارحات ميكافللي / مصدر سابق / ص 318.

(21) نيقولا ميكافللي / الأمير / مصدر سابق ص 131.

(22) المصدر نفسه / ص 148.

ان من مقتضيات تحقيق العقلانية الاجتماعية الانتباه إلى ثلاثة عناصر يؤكد عيها مكيافللي بشكل دائم من خلال تحليلاته في مؤلفيه الأمير والمطارحات مما يؤكد وحدة المنهج الذي طرحه، دون ان يطرحها بشكل قواعد، ذلك ان مسألة المنهج لم تكن تعنيه بقدر ما كانت تعنيه وحده الموضوع وهدفه. إلا انه وبلا شك كان واعيا بعظيم عمله فقد جاء في إهدائه إلى الأمير(وقد تمكنت بعد طويل جد وكد، من التأمل والاستقصاء في أعمال العظماء وتوصلت إلى نتائج أقدمها إلى سموكم)[26]. وفي هذا التصريح تأكيد على علميته التي يطرحها، فهو ما كان ليقدم نصائح قائمة على أساس رأي شخصي، وانما على أساس البحث والتقصي

(23) معن خليل عمر / علم اجتماع المعرفة / جامعة بغداد 1991 ص 151.

(24) نيقولا ميكافللي / الأمير / مصدر سابق / ص 134.

(25) نيقولا ميكافللي / الأمير / مصدر سابق / ص 193.

(26) المصدر نفسه ص 52.

أ. التغير الاجتماعي

آمن مكيافللي بالتغيير الاجتماعي (جميع القضايا الإنسانية في حالة مستمرة من الحركة والتمدد ولا يمكن لها ان تقف جامدة راكدة) [27] فمن مقومات الحياة الاجتماعية هو التغير بفعل وجود العقل الإنساني وتباين العواطف والرغبات واختلافات مفاهيم الأمم والشعوب، ويدعو صاحبنا أبناء مجتمعه إلى الإيمان بمبدأ التغيير لان في ذلك ضمان لاستمرار الحياة. (فالرجل الذي ألف وفق أسلو ب معين لا يستطيع تغيير هذا الأسلوب. وعندما يتبدل الزمن، ويغدو غير موات لأسلوبه فان مصيره المحتوم سائر إلى الدمار) [28] وفي موقع آخر يقول (وانني لا اعتقد أيضا بسعادة ذلك الإنسان تتفق طريقة إجراءاته مع مقتضيات الزمن، وبتعاسة من يعارض في اجرائته تلك المقتضيات) [29].

ب. تشويه دقائق التاريخ

ان لكل سلطان أو دولة فلسفته التي يؤمن بها، كما ان له توجهاته العقائدية. ووفقهما يجري توجيه السلوك الاجتماعي لأبناء المجتمع، وفي ضوء ذلك غالبا ما تكتب المدونات التي من شأنها ان تحط من قيمة أي من المؤلفات أو الكتب التي تنادي بأفكار معارضة. والتاريخ هو ميدان كل ذلك. وما ان تقدم دولة جديدة حتى

(27) نيقولا ميكافللي / مطارحات ميكافللي / مصدر سابق ص 238.

(28) نفس المصدر / ص 194.

(29) نيقولا ميكافللي / الأمير / مصدر سابق / ص 194.

ولتحقيق العقلانية فان على الأمير ان يراعي وجود هذه الحقيقة، وبالتالي فان السلوك المتوقع منه سيحقق النجاح والرضا من قبل الكثيرين الذين يعرفون دقائق التاريخ.

3. الملاحظة التجريبية والتاريخية

ان رجالا قد خلدوا أنفسهم بمؤلف أو مؤلفين عبر قرون، اندثرت فيها معالم وأخرى تغيرت، طبيعي لم يكن إنجازهم المعرفي مجرد معلومات أو معارف فلابد ان هناك شيئا ما يميزها. وأول ما يميزها هو واقعيتها لأنه حينما يكون المطروح من الفكر ذو بعد مثالي (سلبي أم إيجابي) غالبا ما يؤول إلى ان يصبح مجرد جزء من التراث الفكري، لكنه حينما يكون المطروح من الفكر ذو بعد واقعي فان في واقعيته سر الخلود. ولان متغيرات الحياة الاجتماعية واحدة على مر العصور، تكون بالنتيجة، تلك الواقعية، وإذا عدنا إلى مكيافللي فنجده ذلك النموذج الذي طرح مؤلفين ضمنا له الخلود.

إلى جانب الواقعية في الطرح المكيافللي كان هناك عنصر الجرأة والشجاعة. لان الواقعية، وخاصة في طرح قضايا سياسية، وغالبا ما شان قضاياها، تحمل صورا مشرقة عن هيكلية نظم الحكم، وعن العلاقات السياسية. وعن السلوك السياسي. وهنا تأتي قيمة الجرأة في نقلها الحقيقة التي لا يستطيع ذكرها الباحثون لأسباب اجتماعية أو أخلاقية. إلا ان مصير هؤلاء الباحثين الأفول.... فعلى سبيل

---

(30) نيقولا مكيافللي / مطارحات مكيافللي / مصدر سابق ص 421.

المبحث الثالث

أسس علم اجتماع المعرفة عند ابن خلدون

ان الفكر الاجتماعي هو الوجه المعرفي للواقع الاجتماعي وقد رسمه ابن خلدون بموضوعية عالية في تناوله إياه ومتغيراته من بدو وحضر ودول ووسائل كسب للمعيشة وما شمل كل ذلك من أبعاد سياسية واقتصادية ودينية وعمران وخراب وعلوم عقلية ونقلية ووضع ضوابط لقياسه تبنى عليه أصول علم اجتماع المعرفة لأنها رؤية علمية غير مؤدلجة، انه يتميز بخصوصية معينة شاملة لكل العناصر المادية والاجتماعية ببساطة وبغير تعقيد[31]، وهذا ما سنلاحظه في أسس علم اجتماع المعرفة، وهو وان لم يذكرها كقواعد شاخصة في المقدمة إلا انها ماثلة في ثنايا شتى المواضيع التي تناولها في المقدمة. وهي على النحو الآتي:

(31) فاطمة بدوي / علم اجتماع المعرفة / بين الفكر الخلدوني والفكر الغربي / منشورات جروسير بيروت لبنان دون تاريخ ص 98.

1. العوائد

تمثل العادات والتقاليد قواعد اجتماعية جمعية ذات صفات قسرية ليس للإنسان قدرة أو تأثير على تغيير مجراها، فالإنسان الخلدوني هو الإنسان الخاضع للعوائد الاجتماعية وهو (ابن عوائده ومالوفه لا ابن طبيعته ومزاجه فالذي ألفه في الأحوال الاجتماعية حتى صار خلقا وملكه. وعادة تنزل منزلة الطبيعة والجبلة) [32] يسير ضمن إرادة جمعية قاهرة غيبت الشخصية فلا طبيعة سايكولوجية ولا مزاج فردي انها بأفكار من المجتمع ومن ظروفه وعوامله، بل ابن خلدون الذي يفسر نشؤ وقيام الدولة على أساس العصبية والنسب يبالغ في تأكيده على أهمية العوائد حتى انه يجعلها اكثر قوة من النسب على حد تعبيره (ان العوائد تقلب طباع الإنسان إلى مالوفها فهو ابن عوائده لا ابن نسبه) [33] .

لكن العوائد مهما كانت قوتها ومتانتها فانها لابد ان تتغير، ورجل عارف بأمور المجتمعات مثل ابن خلدون لا يمكن ان يفوته تساؤل عن هذا التغير، لذا فقد ضمن مقدمته ثلاثة أسباب أساسية لتغير العادات هي:

أ. اختلاف العصور (باختلاف ما يحدث فيها من الأمور والقبائل والعصبيات وتختلف باختلاف المصالح ولكل واحد منها حكم يخصه)[34]، ان ما يقصده ابن خلدون بالأمور هو القضايا الاجتماعية، ولكل

(32) ابن خلدون / مقدمة ابن خلدون / تحت إشراف د. علي عبدالواحد وافي / دار الشعب القاهرة د. ت ص 114.

(33) المصدر نفسه / ص 346.

(34) المصدر نفسه / ص 189.

ب. الصراع والمنافسة المجبول عليهما الإنسان ويأتي ذلك باختلاف المصالح والمفاهيم العبرة عنها، فالبعض مصلحته سياسية والبعض الآخر اقتصادية وهكذا دواليك.

ت. الخضوع لسلطان الغالب لان (النفس تعتقد أبدا في من غلبها وانقادت إليه.... في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها بل وفي سائر أحواله)(35)

2. المطابقة

تعني المطابقة مقايسة الخبر المسموع أو المنقول بالواقع المرئي أو الموصوف للخروج بخبر اقرب إلى الصدق إذا ان (الأخبار يدخلها الذهول عن المقاصد عند التناقل ويدخلها التعصب والتشييع بمطابقة الحكايات للأصول لخفائها بالتلبيس والتصنيع أو لجهل الناقل) (36) فيبني ابن خلدون وفق النص أداة علمية قادرة على ان تكون ناقدة أيما خبر تدرسه وتكشف عن صحته وهو بعد ان يورد أمثلة كثيرة على أخبار أوردها المؤرخون، وكأنها حقائق. مسلم بها، ينتهي إلى وضع قاعدته هذه في أول المقدمة وكأنه يجعلها ركنا في الدرس التاريخي

(35) ابن خلدون / مقدمة ابن خلدون / مصدر سابق / ص 133.

(36) المصدر نفسه / ص 248.

3. التناسب

ان الغاية من هذا الأساس الذي ينص على ان (التناسب بين الأمور هو الذي يخرج مجهولها من معلومها، وهذا انما هو في الواقعات الحاصلة في الوجود أو العلم)[38] بمعنى أوضح الإتيان بمنهج معرفي لتفسير التاريخ والاجتماع الإنساني من خلال قياس الخبر المجهول بالخبر المعلوم، واستنباطه استنباطاً عقليا واستقرائيا كما في قوله (ونحن إذا اعتبرنا ما ينقل لنا عن دولة بني العباس وبني أمية والعبيديين وناسبنا الصحيح من ذلك... وجدنا بينهما بونا وهو لما بينهما من التفاوت في اصل قوتها وعمران ممالكه)[39] وسواها من الأمثلة المنتشرة في ثنايا المقدمة[40].

(37) المصدر نفسه / ص 35.

(38) المصدر نفسه / ص 109.

(39) المصدر نفسه / ص 162.

(40) المصدر نفسه راجع ص 113، 156، 334، 400... الخ.

المبحث الرابع

مقارنة علم اجتماع المعرفة الخلدوني بعلم اجتماع المعرفة المكيافللي

لكي ننطلق إلى مقارنة علم اجتماع المعرفة بين الاثنين لابد أولا من مناقشة ركنا علم اجتماع المعرفة غير المباشرين، وهما الظروف الاجتماعية العامة، والظروف الاجتماعية الشخصية.

هناك نقطة تشابه وأخرى نقطة اختلاف فيما يتعلق بالظروف الاجتماعية العامة فاما نقطة التشابه، فهي الأوضاع الاجتماعية المتردية، والحروب داخل مجتمعاتها، فضلا عن تدهور الأوضاع السياسية، وتغليب المصالح الشخصية على المصالح العامة.

اما نقطة الاختلاف فان الصراعات كانت داخل الساحة الإيطالية تتم بين جهات أجنبية، فرنسا وإسبانيا، وفي كثير من الأحيان عماد الدويلات الإيطالية المتناحرة من الجيوش فيما بينها كانت من المرتزقة. ولذلك فان شكل الدعوة التي نادى بها مكيافللي تمثلت بتأسيس دولة وطنية جيشها من المواطنين أنفسهم، ولذلك كان كل همه هو كيف يحافظ الأمير على هذه الدولة. في حين ان الصراع داخل الساحة العربية وبالتحديد المغرب العربي لم يكن بين جهات أجنبية، لان كل الممالك كانت عربية بل انه أحياناً يكون الأمراء أبناء عمومه. وعماد الممالك المتصارعة من الجيوش تمثل بالقبائل العربية، وللقبائل قيم مفاهيم هي غير قيم ومفاهيم الحضر ولذلك فقد كان هم ابن خلدون هي مسالة الصراع بين هذه القيم، ولم يقدم نصائح بقدر ما عمل على كشف أصول ومن ثم أفول قيم كل من الجانبين.

وفيما يتعلق بالظروف الاجتماعية الخاصة بكل من ابن خلدون ومكيافللي، فهو انتساب كليهما إلى أسرتين عريقتين لهما مجدهما، كما ان كليهما كان له نشاطه السياسي الرفيع ابن خلدون حاجب دولة بجاية ومكيافللي سكرتير للجمهورية فضلا عن ان كليهما قد انقسمت حياتهما إلى سياسية، وأخرى غير سياسية كانت عند ابن خلدون علمية تمثلت بممارسته القضاء والتدريس، وعند مكيافللي الاحتكاك بعامة الناس والكتاب السياسية. مع فارق بسيط هو ان ابن خلدون اعتزل الحياة السياسية عن رغبة في طلب العلم فسافر إلى مصر، بينما اجبر مكيافللي على اعتزال الحياة السياسية حينما نفي إلى ضواحي المدينة (بعض أملاك أسرته).

ويمكن ان نقول عنهما أيضا (ابن خلدون ومكيافللي) ان ميزتهما المشتركة انهما جازفا بمكانتها الاجتماعية في مجتمعهما حينما صرحا بمثالب أوضاعهما الاجتماعية والسياسية، في وقت لم يكن يستطيع أحد ان بطرح أو حتى يشير بشكل غير مباشر إلى تلك الأوضاع الفاسدة. ولكن الذي حدث ان مكيافللي قد لاقى كتابه التشهير والمنع لقرون عديدة في حين ان ابن خلدون كثيرا ما كان يبعث بمقدمته إلى المكتبات العربية جامع الزيتزنة في تونس، وجامع القروبيين في المغرب. وسبب ذلك ان ابن خلدون كان قد أعطى للجوانب الاجتماعية اعتبارا كما انه عد الدين وسيلة مهمة من وسائل الضبط الاجتماعي وضرورة أحيانا على الدولة ان تحافظ عليها، وهو لم يفعل ذلك أسس لان الدين لم يشوه بفضل (القرآن الكريم) ولو كانت الأوضاع المتردية إلى حد ما سببها الدين، فان ابن خلدون، ووفقا لواقعيته وجرأته نقول كان من الممكن ان يشير إلى هذا السبب. وبالمقابل وجدنا ان مكيافللي – وهذا هو سبب السخط عليه إلى حد ما – يندد بالدين والسبب كما هو معروف كان الممارسات اللادينية للكنيسة على سبيل المثال إصدار صكوك الغفران وفي الحقيقة لم يكن مكيافللي هو الوحيد الذي ندد بذلك لان زمنه كما هو معروف شهد ظهور

اما وجهة الشبه حول اس (المطابقة) والعقلانية الاجتماعية، فهو تأكيد (ابن خلدون ومكيافللي) على عدم الإطلاق والانقياء نحو سلوك واحد، بل يجب ان يقف الباحث في علم اجتماع المعرفة على نقطة مهمة تتمثل بالنسبية، فيجب ان لا يؤمن الشخص بالنسبة لابن خلدون بكل الأخبار على إطلاقها بل يمحصها ويدرسها كي لا يقع في شرك السبب الواحد. وبالمقابل نجد ان مكيافللي يدعو الأمير ان لا ينهمك في عمل واحد كالحروب بل عليه ان يلتفت إلى صالح العامة في الاستقرار والهدوء.

وأخيرا يقوم التناسب عند ابن خلدون على أحكام العقل لإخراج المجهول من المعلوم على صعيد التاريخ، وهذا الحكم يتمثل بالجمع بين حقائق التاريخ والواقع المشهود، الملاحظ. وبذلك أعطى للملاحظة التجريبية قيمة كبرى لأنها هي المعلومة التي نقيس عليها المجهول من حقائق التاريخ بعد ان نطابقها (وفق القاعدة الثانية). وبالمثل أعطى مكيافللي الملاحظ التاريخية. والتجريبية قيمة قصوى فما كان ليسلم بالحقيقة المعاشة أسس ويقرنها بالحقيقة التاريخية.

ويكون بذلك كل من ابن خلدون ومكيافللي شاهدان حيان على حقيقة علمية وهي ان العلم يجب ان يكون من صميم الواقع. وبالتالي استنباط القوانين العلمية من صلبه من اجل دراسته دراسة المحقق الذي يرمي إلى تحقيق العلم خدمة للمجتمع، والعلم الإنساني الذي يمكن ان يحقق ذلك هو علم اجتماع المعرفة لأنه يجمع بين منهج البحث من جهة وبين مادة العلم من جهة أخرى.

وفيما يخص إذا علم اجتماع المعرفة لديهما (ابن خلدون ومكيافللي) وبحكم تشابه الظروف فظلا عن محددات أخرى فقد كانت متقاربة إلى حد ما من حيث الجوهر، وان كانت متباينة من حيث الشكل. ويوضح المخطط أدناه ذلك.

ابن خلدون	مكيافللي
العوائد (العادات)	الطبيعة البشرية
المطابقة	العقلانية الاجتماعية
التناسب	الملاحظة التجريبية – التاريخية

إذا جئنا إلى العادات فاننا نجد ابن خلدون محقا في إعطائها الأولوية بحكم ان عناصر الصراع كانت تحكمها إلى حد ما العادات الاجتماعية، فهناك التقاليد القبلية وعاداتها، وكما أوضحنا كانت القبائل العربية أحد عناصر الصراع المعتمد عليها دوما من قبل هذا الأمير أو ذلك السلطان. من جانب آخر، هو وحدة العادات والتقاليد لجميع الأطراف، وبالتالي فان احترمها مسالة مشتركة، والخارج على هذه العادات سيكون مذموما من قبل أعضاء جماعته التي ينتمي قبل ان يكون مذموما من قبل أعدائه. وبالمثل كانت أطراف الصراع في إيطاليا متباينة في عاداتها وتقاليدها. فما يكون مذموما عن أحد الأطراف ليس هو كذلك بالضرورة عند الأطراف الأخرى. كما ان القوة العسكرية للصراع أصلا كانت من المرتزقة، فطبيعي ان تكون أداة القياس لمكيافللي الطبيعية البشرية لأنها الوحدة المشتركة للجميع مما يتيح له ان يقسيها على الجميع كما انها (الطبيعة البشرية). هي المحفز الوحيد والموجه في ذات الوقت للسلوك ولم يكن الدين المسيحي، موحدا بسبب الصراعات المذهبية بل ان العصر كان عصر حروب دينية.

الخاتمة

ان كل بحث لابد ان يخرج بجملة من الاستنتاجات التي يشير وجودها إلى خلاصة مقتضية نوردها على النحو الآتي:

1. وحدة المنهج والعلم لدى كل من ابن خلدون ومكيافللي ممثلا ذلك بالأسس التي خلص إليها كل منهما بشكل منفرد. وبالطبع ان السبق لابن خلدون، لأنه تاريخيا اقدم من مكيافللي بما يقرب من قرن ونصف القرن من الزمان.
2. وحدة الظروف الاجتماعية العامة والخاصة لكليهما (ابن خلدون ومكيافللي) والتي كانت من ابرز العوامل التي ساهمت في تحقيق وحدة المنهج والعلم.
3. قام كليهما (ابن خلدون ومكيافللي) بمعالجة الواقع الاجتماعي بشكل جدي، وعلمي وموضوعي في زمان تدنى فيه العلم وغاب ساحته المفكرون.
4. جاء علمهما (ابن خلدون ومكيافللي) المتمثل (بالمقدمة) و (الأمير والمطارحات) بعد ان انتهت الحياة السياسية لكليهما. مما يعني تضمين عملهما بالخبرة الاجتماعية – الواقعية. وهذا ما ضمن الخلود لجهدهما الفكري. وبالنتيجة إمكانية تطبيقه على المجتمعات الأخرى يعد تهذيب لمن يريد الاستفادة وذلك بسبب ان العلم الذي دعيا إليه تضمن جانب كبيرا من المنهجية العلمية.

Abstract

Sociology of Knowledge between Ibn Khaldoun and Michafely

Dr. Shfeeq Ibraheem (*)

Every search must be results with number of conclusions which refers to abstract as the following blow:

1. The unity of method and science both of Ibn-Kaldon and Michafele represented with foundations which reach to both of them lonely, of course earliest should go to Ibn-Kaldon because historically he older than Michafele about a century and half-one.
2. The unity of special and public social circumstances to both of them (Ibn-Kaldon and Michafile) that it were one of the importance factors which contributed with achieve the unity of method and science.
3. Both of them (Ibn-Kaldon and Michafile) are reformed the social reality seriously, scientifically and subjectively at a time when science had been depressed and disappeared thinkers.
4. Their knowledge (Ibn-Kaldon and Michafile) which represented (Al-Mukadema) and (the prince and suggestion) after the politcal life of them finished which was mean contained their learn with reality-social experience this was guaranties immortality to their mind effort as a result it can be applied on the other societies after reforms who would like to

(*) College of Arts / University of Mosul.

benefit because science whom calls to contained a big side of scientific methodical.